

السبـتـ 18-09-2010

## 1114- جـلـيةـ الـاسـتـبدـادـ وـالـاسـتـضـافـ

نظراً للتأجيل نشر "تعنّت الدستور" الأسبوع الماضي / وسبق نشرها في الموقع يوم السبت الماضي، فقد رأيت أن أنشر هذا المقال القديم الذي سبق نشره لي في في مجلة العربي الكويتي عدد أبريل-2004

ما رأيك؟ هل نكرر المحاولة؟ أم وقتكم لا يسمح

### جلـيةـ الـاسـتـبدـادـ وـالـاسـتـضـافـ

الاستبداد في الخبر غير الاستبداد في الحكم، والاستبداد في الرأي غير الاستبداد في الفعل، الأرجح أن الخطر الحقيقي لا يمكن في الاستبداد نفسه بقدر ما يتمثل في مناورات إخفائه لتمييع مواجهته، وكذلك في العجز عن التفرقة بين ضرورته المبدئية، ومضااعفاته الخطيرة .

الشائع المتواتر عن (الاستبداد/القهر) هو أنه يتم بفعل فاعل من جانب واحد، لأننا نهمل النظر إلى الجانب الآخر (المفعول به) مع أنه لا تقل مسؤوليته عن الجانب الفاعل في ظهور الظاهرة ومتاديها، مع أنه يدفع ثمنها أشد وأظلم .

إن المستبد، والمستبد به، شريكان في ظهور واستمرار الظاهرة بالرغم من اختلاف مسؤولية كل منهما، وأيضاً برغم اختلاف مضااعفات الظاهرة لدى كلّ، المستبد به يدفع الثمن غالباً: قهراً واستهانة وتميشاً حتى الإلغاء، والمستبد يدفع الثمن وحده واغتراباً وانقساماً وتفریغاً من الداخل، ثم ضياعاً لإنسانيّاً في نهاية المطاف .

هذا بالنسبة للشائع عن مضمون لفظ الاستبداد حالياً، كما يستعمل في مجالات السياسة، والحكم، والمعارضة، والتعريف، أما عن أصل الاستبداد في جذور الطبيعة البشرية، فلعل اللغة العربية - قبل العلوم النفسية - قد استطاعت أن تلتقط وتستوعب هذه الجذور لتضمنها هذا اللفظ، حين نستقرئ اللغة دون تحيز سابق، ودون غلبة ما شاع عن اللفظ أخراً، نفاجأ بأن أصل لفظ الاستبداد في ذاته بريء، مما احتواه لاحقاً من مضامين. فلن ننصر استعماله حالاً على ما هو قهر وظلم

وغريرة واستعلاء، في حين أنه أصلاً يشير إلى الانفراد والغلبة. ف أساس البلاغة: (استبد بالرأي انفرد به)، وفي "تاج العروس" (استبد فلان به أى (تفرد به دون غيره)، وفي لسان العرب (استبد برأيه انفرد به). فإذا انتقلنا من الرأي والشخص إلى الأمر والفصل، فإن المعنى يتحرك إلى ما نسميه الآن: (حكم الفرد) أو (الحكم الشمولي)، ففي حديث على رضي الله عنه (أشار إليه ابن منظور وذكر نصه البزيدي)... (كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستبدهم به). ثم إنه كما يستبد الشخص بالأمر يستبد الأمر بالشخص (استبد الأمر بفلان إذا غلبه فلم يقدر على ضبطه)، حتى بدا كان في الاستبداد حزماً مطлоتاً... إذا عزم على أمر أمضاه ولم يثنه عنه شيء (أساس البلاغة).

**يمكن أن نحدد منطلقاتنا في الحديث عن الاستبداد على خاور عدة :**

**أولاً: تطور مراحل الاستبداد.**

**ثانياً: المسؤولية المشتركة في عملية الاستبداد.**

**ثالثاً: تجليات الاستبداد، وأخيراً: جدلية الاستبداد والاستضعاف.**

### **تطور مراحل الاستبداد:**

أن تستبد برأيك بدء ولادته حتى لو كان ذلك في عمق اللاوعي، هذا أمر وارد، بل هو مطلوب، وإنكار ذلك خالف للطبيعة البشرية، ومفيئع لفرض الحوار الحقيقي، لا أحد يريدأ داخل نفسه - إلا من موقع متفرد خدد جداً، وبذلك يمكنه أن يكون متيقناً من نقطة انطلاقه، مستبعداً غيرها، حتى إذا لم يكن هذا الموقف الخدد بادياً في ظاهر الشعور، فإنه يظل حاضراً في عمق الوعي، حتى لو تخفي وراء ظلالة من ميوعة الغموض وآذاعاته قبول الآخر، وزعم الحرية دون شروط، فإذا ظهر هذا الموقف المستبد (المتفرد) على سطح الوعي، فهو الرأي البدئ القابل للحركة والجدل والتحريك والمواجهة، ذلك أنه بعد ذلك - بعد ظهوره - يصبح في متناول وعي الآخر، كما يدخل اختبار واقع ملموس، فإذا استمر - برغم ذلك - كما هو بنفس التفرد والصلابة، لا يهتم برأي الآخر، ولا يتطور إلى ما يطوره من واقع الواقع، فهو الاستبداد بالرأي (وليس الاستبداد البدئ) وهنا يمكن أن يوصف بالتعصب والعمى والتحيز والجمود .

فإذا كان صاحب هذا الرأي المستبد ذا سلطة محدودة (والد أو مدرس مثلاً) فقد انتقلنا إلى احتمال الاستبداد (بالأمر) (بالفعل) حين يفرض هذا الرأي - تنفيذاً - على غيره من الأضعف والأحوج. أما إذا كانت سلطته شاملة تمتلك أسلحة الإغارة على الوعي (الإعلام) وعلى الفعل (الاستغلال والاستعمال) فهو الاستبداد الشمولي، والدكتاتورية، وما إلى ذلك .

خن لا يمكن أن ننكر أن في هذه النظم المسماة استبدادية - خصوصاً في بداية انطلاقها - ما يشير إلى إيجابية ما (العلها تتواءز مع بعض ما لاحظناه من استقرار اللغة) لكن المصيبة الكبرى تتحقق من خلال آليتي (التمادي) و(التعيم). إن قائد مجموعة من الثوار حين يستبدل برأيه في اجتماع سرى محدود أثناء فترة الإعداد، قد يكون على حق وهو يمارس اختراقات التردد ليتغلب على ببلة التخوفات، أو مجموعه الأغلبية، لكن هذا القائد نفسه حين يستبدل برأيه بعد أن يتولى السلطة، وبذلك ناصية الفعل والفرض بشكل شامل، يصبح استبداده برأيه مجلبة لمصائب ليس لها علاقة لا بالثورة ولا بإيجابيات التفرد. هنا ننتبه إلى أن العيب ليس في فكرة الانفراد ذاتها، لكنه في الخلط بين الحاجة إلى بداية تحتاج إلى الجسم الجسور، وبين التمادي في فرض الرأي على الجميع من موقع السلطة:

### **الخور الثاني: المسئولية المشتركة**

لا أحد يولد فرعوناً، حتى لو كان ابن فرعون، إن التفرعن ينشأ من الاحتياج إليه، ثم إنه يتمادي بفضل من يسمح به، ويزكيه وينقيه. يبدو أن هذا هو بعض ما نهى إلى وعي الشعب المصري وهو يطلق مثله الشهير (قالوا لفرعون إيش فرعونك، قال: ما لقيتش حد يردني).

من حيث المبدأ يكاد يستحيل تصور أن ظاهرة بهذا التعقيد، وهذا التمادي يمكن أن تظهر وتستمر إلا في مناخ يسمح بها، وأحياناً يباركها، المستبد به يشارك في إرساء قواعد الاستبداد بالضعف، والاستسلام، والاعتمادية والتخلّي عن حقوقه. لا عيب في الضعف باعتباره مشروع القوة القادمة، لكن العيب في الاستضعفاف.

لقد فرق القرآن الكريم بشكل حاسم بين الضعف والاستضعفاف. احترم الضعف وغمر أصحابه بالرحمة (والعفو يُريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً) (الآن خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعِلْمٌ أَنْ فِيهِمْ ضُعْفًا) لكنه نهى إلى خطورة ومسئوليية المستضعففين، وأنهم ظالمو أنفسهم (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالَى أَنفُسَهُمْ قَالُوا فِيمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَلَهُاجُرُوا فِيهَا) - ومع الاختلاف حول معنى (أرض الله) ومعنى (المهجرة) فإن الآية الكريمة صرحة في التنبية على رفض التسلیم، من حيث أن قبول الظلم هو إسهام في تحقيقه وتماديته .

### **الخطر:**

الخطر الحقيقي - هو في التوقف عند مرحلة الاستبداد بالفعل - وليس فقط ببُدء الرأي. يتم ذلك ليس فقط من خلال غطرسة المستبد المتزايدة، ولكن أيضاً باستمرار المستضعف في الإسلام الفعلى، حتى لو جاز بالشكوى. إن آلية الاستبداد وآلية الاستضعفاف تغذى بعضها بعضاً .

يبدأ المستبد باختبار مجال سلطته بقرون استشعار ترمد

نوع تلقى استبداده، فإذا وجد تراجعاً تقدم، ثم يتواصل تمادي الاستبداد وانتشاره مع تمادي الاستفهام والاستسلام والرّاجع، وهنا يصل المستبد إلى الخدعة الكبيرة، فيبدأ من أن ينتبه إلى الخطأ الذي يجده به قبل ضحاياه، إذا به ينخدع فيتصور أن هذا النجاح الزائف هو نتيجة صفاتيه المترفة، فهو يستشعر آنذاك في نفسه قوة غير حقيقة، ويغيب عنه أنها ليست سوى مخلة عماه الذي تضاعف مع تهاوى المقاومة التي كان يمكن أن تفيقه.

### مسلسل التمادي:

تقول الآية الكريمة في فرعون موسى: (فاستخفَّ قومه فأطاعوه)، يصلني من هذه الآية أيضاً صحة عكس الاتجاه، بمعنى يفيد أنَّ القوم حين أطاعوا الفرعون، استخفُّهم، ثم إنَّه استخفُّهم أكثر فأطاعوه أكثر. هكذا نفهم كم أنَّ التمادي المغلق الدائرة المتفاقم التصعيدي، هو سر دوامية الاستبداد وتعاظم مضااعفاته.

إن غياب المقاومة الحقيقة بكل صورها، من أول فاعلية أحزاب المعارضة التي لا بد وأن تعدد (أو تهدد) ب التداول السلطة، حتى ضغط الرأي العام بكل الصور المشروعة، والمهددة باخراق الشرعية، غياب كل ذلك هو الذي يشجع الحكام المستبددين على الاستخفاف بالمستضعفين، ومن ثم التهميش، حتى الإلغاء تماماً.

### ثقليات الاستبداد:

ومن واقع ما سبق، بدءاً من أصل المضمون وقبولاً بمشروعية البدايات، وتحذيراً من التوقف والتمادي والتمعميم، يمكن رصد فشرح عدد غير قليل من جملات ومظاهر الاستبداد من أول إيجابياته النفسية في تربية الأطفال حتى دوره السلبي في تفرد شركات الدواء بزرع أفكار مطلقة شبه علمية في عقول الأطباء (لاسيما صغارهم)، مروراً باستبداد بعض المناهج العلمية - دون سواها - لاحتقار تعريف ما هو علم، انتهاءً باستبداد القوة العالمية الجديدة لاحتقار الحرية تحت اسم الديقراطية، واحتقار الحضارة تحت اسم التقديم، واحتقار أمل الوجود البشري في التطور تحت مسميات مثل مجتمعات الوفرة والرفاهية.

الاستبداد في الحب يقول عمر بن أبي ربيعة وهو ينشد :

ليت هنـا أـجزـتـنـا مـا تـعـدـ وـشـفـتـ أـنـفـسـنـا مـا تـجـدـ

وـاسـتـبـدـتـ مـرـةـ وـاحـدـ إـنـماـ العـاجـزـ مـنـ لـاـ يـسـتـبـدـ

هل كان عمر بن أبي ربيعة يزج أو يناور وهو يتمنى على هند أن تستبدل به ولو مرة واحدة، أم أنه كان ينبهنا إلى عمق هذه الحاجة ومشروعيتها وهو يعلنها بلسان رجل خبير؟

إننا نميل إلى تفخيم رجولة الرجل بإطراه خشونته أو التلميح بفحولته، فكيف نفهم أمنية عمر بن أبي ربيعة أن تستبد به هند وهو يعلنها صريحة هكذا؟ إننا - أيضاً - نصوّر ونتصور أنوثة المرأة بشكل إن دل على شيء فهو يدل على طغيان المفهوم الاجتماعي (المحلّي) على المفهوم البيولوجي/الوجودي للأوثة، إن التركيز على تصوير أنوثة المرأة، من خلال البعد الاجتماعي المتخلّف باعتبارها مارس موقف المثلّى الناعم السلي المستجيب بأقل قدر من المبادأة، هو موقف خاطئ ناقص. المرأة لا تتفجر أنوثتها الفطرية، إلا إذا احتوت ذكورتها في تكامل خلاق.

ذكورة المرأة ليست استرجالاً، بل هي تأكيد لأنوثتها، حتى من وجهة نظر هرمونية. إن اللقاء الأنجع والأكمل بين المرأة والرجل يكون لقاء رباعياً بين أربعة وليس اثنين، وذلك حين يسمح الرجل لأنثاه الداخلية أن تخضر لتحتوي ذكورة شريكه، في حين تسمح المرأة لذكورها الكامنة أن تخترق تردد شريكها. إن جاذبية المرأة الجسور، (المستبددة)، التي لا تنقص من أنوثتها بل تُضاعفها، لا تخفى على المبدعين والمؤرخين عبر التاريخ. أشير استطراداً إلى مثالين من السينما: الغجرية لندادارنيل في: فيلم غير إل الأبد في أواخر الأربعينيات أوائل الخمسينيات ثم فيلم (شباب امرأة)، وفيه تخيّة كاريوكا، تمثّل هذا الدور بكفاءة، ربما تنسق مع سمات شخصيتها بشكل أو بآخر. هكذا قدمت السينما للشخص العادي حضور المرأة المستبدة فاتحة الأنوثة.

### **دورات التبادل:**

لا يمكن أن نستوعب معنى الجدل دون مسخه، إلا ونحن نعايش حركيته مع الزمن وحيويته الإيقاع. إذا اعترفنا ابتداء - كما حاولنا في البداية - أن علينا أن نعطي للاستبداد مشروعية مبدئية تمهدًا للتجاوز مضافاته، ثم اعترفنا أيضًا بمشروعية مبدئية للاستضعفاف على مسار تجاوز سلبياته، فعلينا أن نقبل في الوقت نفسه دورات التبادل حيث يصبح المستضعفف مشروع مستبد، في حين يتراجع المستبد إلى مشروع مستضعف وهذا. لعل هذا هو ما أشارت إليه الآية الكريمة: (ونريد أن نحن على الذين استضعفوا في الأرض وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين)، كما لعل هذه الدورات أيضاً تكمّن فيما تلوح به الديقراطية من (تداول السلطة).

حتى الوالد الذي أشرنا إلى حاجة الطفل إلى استبداده، حين يعمر ليصبح كهلاً جيلاً، يصبح أحوح ما يكون إلّا من يستبد به ليعينه.

### **الخلاصة:**

أخلص من كل ذلك إلى تحديد الفروض التي حضرتني من خلال هذه الإحاطة المتنوعة على الوجه التالي:  
أولاً: إن كلاً من الاستبداد والاستضعفاف طبيعة بشرية عامة.

**ثانيًا:** إن ظهور، وقبول أي منها يتوقف على المرحلة، التي تظهر الظاهرة فيها، ثم على توظيف أي منها لغرض ذاته، في طور ذاته، من أطوار الوجود والنمو .

**ثالثًا:** إن الاستبداد (بالمعنى الذي ورد في المقال كله) ضرورة مبدئية مرحلية، لكن التمادي فيه فعل شولي جامد، يحقق عكس ما تعد به بداياته .

**رابعًا:** إن (الاستضعفاف) حق مرحلى مشروع، لكن التوقف عنده هو ظلم المستضعف لنفسه، بل وللمستبد به، لأنه يوقف الحركة للاثنين معاً .

**خامسًا:** إنه يتبادل الأدوار، من خلال الإيقاع الحيوى للأفراد، ومن خلال تداول السلطة للجماعات، ومن خلال دورات الحضارة للأمم، لهذا التبادل تطرد حركية جدلية تسمح باستيعاب هذه الحاجات الأساسية لتخليق منها حيوية نابضة واعدة باطراد التطور دون اختزال أو استقطاب.